إشهار الهوية الثقافية ما بعد الكولونيالية واليوتوبية في الشعر العراقي المعاصر

الكلمات المفتاحية: اشهار ،الهوية ،الشعر العراقي

البحث مستل من أطروحة دكتوراه

محمد جميل مصطفى ا٠م٠د٠جاسم محمد حسين

جامعة ديالى/كلية التربية الاساسية

Jmylm744@gmail.com jassim80_sat@yahoo.com

الملخص

يهدف البحث إلى دراسة الشعر العراقي المعاصر (من الرواد إلى ٢٠٠٣) للوقوف عند مدى قدرة الشاعر العراقي المعاصر على إبراز الهويات الثقافية وترويجها وتحويل أذهان المتلقي نحوها، ومدى تعزيزه للنظرية القائلة بأنّ للإشهار قدرة وقابلية على تغيير الخصوصيات الثقافية بوصفه صناعة ثقافية تروّج وتسوّق للقيم والأعراف والأنماط الثقافية والإجتماعية؛ لما يتضمّنه من استراتيجيات إقناعية ثقافية بإمتياز، لذا سعت هذه الدراسة إلى الكشف عن ذلك معتمدةً الآليات التحليلية السائرة تحت مظلّة الدراسات الثقافية، وقد اقتضت الدراسة تقسيم البحث إلى مبحثين تسبقهما مقدّمة وتوطئة وتعقبهما خاتمة وقفت عند أهم النتائج المستخلصة من الدراسة.

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيّنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين.

لعلّ واحدة من أهم أهداف الإشهار أنّه يُمَكّن الأفراد من التواصل مستثمراً آليات واستراتيجيات متعدّدة للوصول إلى غاياته المُثلى وهي تمرير آيديولوجيات المُشهِر وأجنداته الفكرية في خطاباته الأدبية لا سيما الشعرية منها، ولا شكّ أنّ الخطاب الشعري العراقي المعاصر شكّل رافداً مهمًّا لدراسة الإشهار لما يحمله من مضامين وأنساق ثقافية واجتماعية وسياسية مهيمنة؛ لذلك جاءت هذه الدراسة لتكشف الأبعاد الآيديولوجية المتضمّنة في نصوص الشاعر العراقي المعاصر من خلال إشهاره للهويات الثقافية، فالشاعر من خلال خطاب الإشهار يروّج للهوية الثقافية التي تعد جزءاً من عقيدته الآيديولوجية التي يؤمن بها

إيماناً راسخاً، حاثًّا المتلقي ومحفّزًا إيّاه ومحاولاً إقناعه بتلك الهويات الثقافية المروَّج لها، وكسب ثقته بها، وهو حينما يُسَوّق تلك الهويات يؤمن إيماناً راسخاً أنّها تبني المجتمع وتحقّق آماله وطموحاته المستقبلية.

ركّزت الدراسة على الآليات والإستراتيجيات الإشهارية المتضمّنة في النصوص الشعرية العراقية المعاصرة ضمن المدّة الزمنية (من الرواد إلى ٢٠٠٣)، معتمدةً الآليات التحليلية السائرة تحت مظلّة الدراسات الثقافية منصرفةً إلى البحث في سؤال الهوية كشفاً وتحليلاً، وذلك لارتباطها الوثيق بالأبعاد النفسية والإجتماعية والفلسفية التي شكّلت وعي الإنسان بذاته وبالآخر المختلِف.

أمّا المسوغ الذي جعل الدراسة تجمع بين (ما بعد الكولونيالية واليوتوبية) فهو أنّ كليهما يندرجان تحت مظلّة ما يعرف بهويات ما بعد الحداثة التي تمثل هويات (الهامش).

جاءت هيكلية خطّة الدراسة متضمّنة مقدّمة وتوطئة للدراسة ومبحثين وخاتمة ثمّ قائمة بأهم المصادر والمراجع. تناولت التوطئة مدخلاً نظرياً يحيط بالإشهار والهوية الثقافية ومدى ارتباطهما بالشعر، أمّا المبحث الأول فقد وقفت الدراسة فيه عند النصوص الشعرية العراقية المعاصرة التي تناولت كيف استطاع الشعراء العراقيون المعاصرون الترويج للهوية الثقافية ما بعد الكولونيالية مشهرين موقفهم من العالم، ورؤيتهم الثقافية المعاصرة. أمّا المبحث الثاني فقد تناولت الدراسة فيه كيف تمكّن الشعراء العراقيون المعاصرون من الترويج للهوية الثقافية اليوتوبية في نصوصهم ومدى استثمار ذلك في ترويج أفكارهم الآيديولوجية المؤثّرة في أذهان وعواطف المتلقي. أمّا الخاتمة فقد وقفت عند أهم النتائج المستخلصة من الدراسة.

توطئة:

يتشظّى مصطلح الهوية إلى دلالات عدّة إذ يحمل معاني التماثل والتشابه والإستمرارية فضلاً عن المماهاة مع الذات من خلال المحافظة على سيرورة مكوناتها التي قد يعاد ترتيبها داخل خريطة تعريفيّة تساعد الذات في تنظيم إحداثياتها، وتأخذ منحى تأطيرياً للشخص من ناحية الإسم والنسب والقومية والعنوان وكل ما يحدّده ويميّزه عن غيره[١] فهي تضفى على الشخص وجوداً وماهيةً بوصفها ممثّلاً لـ ((كل من العلاقات والصلات الإجتماعيّة

والإقتصاديّة والسياسيّة والأخلاقيّة والثّقافيّة التي ترتبط باللغة والتّاريخ والمصير الواحد والمصالح المشتركة والمحدّدة بأبعادها وعلاقتها التي تتمثّل في علاقة الأنا بالواقع (المعرفة والأخلاق)، وعلاقة الأنا بالآخر، غير أنّ هذه الأبعاد ليست انشطارات منعزلة بل كلّها علاقات جدليّة مترابطة)) ويرى الدكتور سمير الخليل فيما يتعلّق بمصطلح الهوية أنّ الذات تعدّ ((كينونة إنسانية صغرى تتماهى مع ذات جمعية أكبر منها تتمثّل بالهوية، فالإنسان إنّما يبدأ بإدراك ذاته ضمن مكوّن مجتمعي ذي ملامح ثقافيّة خاصّة ومميّزة، ومنه يتزوّد بالنّظام القيمي والثّقافي العام ... فالفرد سيجد نفسه ملزماً لحظة ولادته بقبول مفاهيم وأنظمة كثيرة لم يسهم في صناعتها كاللغة ونظام الزّي وقواعد السّلوك وغيرها))[٢] وبما أنّ الهوية في أساسها العميق تعني التفرّد لذا تعدّ ((السّمة الجوهرية العامّة لثقافة المجموعة والهوية ليست منظومة جاهزة ونهائية إنّما هي مشروع منفتح على المستقبل أي مشروع متشابك مع الواقع والتاريخ، لذا فإنّ وظيفتها هي حماية الذّات الفردية والجّماعيّة من عوامل الذّوبان))[٣] ؛ لذلك فإنّ الهوية الثقافية تمثّل انصهار الهوية الفردية في الهوية الجماعية التي تنضوي تحتها الأفكار مشكّلة الهوية الثقافية.

ولو تتبّعنا النّصوص الشعرية العراقية المعاصرة سنجد أنّ الشّعراء يبثّون رسائلهم الإشهارية بهدف توجيه ذهنية الجمهور المتلقي من خلال العزف على وتر الوفاء للمنتج / الهوية الثقافية، من باب الإشهار للهويات والترويج لها عن طريق الخطاب الشعري.

المبحث الأول

إشهار الهوية ما بعد الكولونيالية في الشعر العراقي المعاصر

لعلّ واحدة من أهم سمات الإشهار أنّه صناعة ثقافية إعلامية غايته الترويج لثقافة المجتمعات يسعى إلى نمذجة ما يحيط بالإنسان من أنماط حياة ثقافية جديدة بوصفه سلطة تمارسها المؤسسات لاستمالة الجمهور والتأثير في قناعاته، لما يمتلكه من طاقات تأثيرية تثير وتستهوي وتغيّر الأذواق والقيم والاختيارات [٤] فهو لا يقتصر على البيع والشراء بل يدخل ضمن استراتيجياته خلق وصناعة الثقافات والهويات والأفكار والتصوّرات، والغاية الكامنة وراء تشكيل الصور الثقافية التي من خلالها ينبثق الخطاب الإشهاري هي إنتاج الثقافات التي

تتزيّا بالآيديولوجيا خفاءً وظهوراً[٥] وتتشكّل الهوية الثقافية ما بعد الكولونيالية من خلال النصوص الأدبية التي أنجزتها الشعوب المستعمَرَة بغرض الإشهار لأساليب الهيمنة والمقاومة والمناهضة والإعلان عن الآليات المراوغة والخفية والناعمة التي يمارس بها الخطاب الكولونيالي هيمنته التي تفرض حالة التلازم بين التبعية السياسية والإتباع الفكري، ومن خلال ذلك يتم الترويج لـ ((نمط جديد دخل في الثقافة المعاصرة وتشرّب في نسيجها، وهو يعبّر عن حراك ثقافي ونفسي فيه حسرات وآلام))[٦] الشعوب والأقليات المهمّشة والترويج لقضاياهم المصيرية ومحاولة إيصال أصواتهم للعالم عبر استراتيجيات تحفيزية تثوّر الوعي العالمي وتستثير طاقات اللاوعي الجمعي لديه وصولا إلى نقطة التحوّل الكبرى وهي قبول اعتناق تلك الثقافة الجديدة التي تعد بالوعي الإنساني المتشرّب في ثنايا تلك الرسائل الإشهارية.

ومن البديهي أن تولّد التجربة الكولونيالية ردود فعل من قبل السكان الأصليين ضد الاحتلال والقمع والاستغلال والازدراء الموجّه إليهم من قبل الشعوب المستعمِرَة وهي ردود فعل متنوعة منها أعمال المقاومة وحركات التحرّر، ومنها الأعمال الأدبية والفنية والثقافية المضادّة والمناهضة للخطابات الكولونيالية، لا سيما النصوص الشعرية العراقية المعاصرة، إذ استطاع الشعراء العراقيون المعاصرون من القيام بعمليات الترويج للثقافة ما بعد الكولونيالية من خلال الإشهار لقضايا مصيرية تتعلّق بتشكيل الهوية الثقافية ما بعد الكولونيالية لتغيير أنماط الوعي لدى الجمهور الشعبي المستعمَر مصبوغة بصبغة إنسانية جديدة تتجاوز الوعي السائد، ولكي يقوم الشاعر بإشهار الهوية الثقافية ما بعد الكولونيالية في النص الشعري العراقي المعاصر يفترض عليه التصدّي لتفكيك السرديات الكبرى في الخطابات الكولونيولية، وهي تلك ((التمثّلات الثابتة التي أنتجها العلم الغربي الحديث، وهي سرديات يفترض أنّها تمثّل الحقائق الكونية التي تدّعي الحضارة الغربية أنّها تنطوي عليها وتستند إليها في تحقيق مشروعيتها الموضوعية))[٧] متخذة من تلك السرديات مرجعية فكرية وثقافية لتجميل زيف دعاواها الواهية بالعدالة والمساواة والحرية للشعوب المستعمَرَة.

ومن القضايا التي تتصل بإشهار الهوية الثقافية ما بعد الكولونيالية الترويج لقضية الأصلاني، ذلك ((الصامت الذي لا صوت له، والذي مثّله الغرب نيابة عنه، وهو الآن يستعيد صوته

وينطق ليمثّل نفسه، وفي عملية التمثيل للذات هذه يُكتَشَف واقع جديد، وتاريخ جديد، أو بدقّة، سردية جديدة تكافح من أجل أن تُسمع وتحتل مكانة لها إلى جانب السرديات الحواضرية))[٨] وقد تكفّل الشعراء العراقيون بإشهار صوت ذلك الأصلاني ورفع لافتات عالية تروّج لمعاناته ولا سيما الشاعر سركون بولص في نصّه (رسالة من هوليوود) إذ يقول[٩] :

في الشارع بين براميل الزبالة

ينام الموتى واللصوص معاً

في هذه القارة المسروقة

وفي هذه الساعة المتأخرة

يدخل إلى المقهى هنديٌّ طويل

قتلوا حصانه الأبيض

ولوّثوا أنهاره الجميلة

فهو يشهر حقائق تم التدليس عليها من قبل المستعمِرين في القارة المسروقة (أمريكا حاليا)، حقائق تاريخية مسروقة للهنود أصحاب الأرض الأصليين، فالمستعمِر قتل تاريخ تلك القارة وغيّبه مع قتل وتغييب ذلك الحصان، ولم يأتِ الدال (الأبيض) صفةً للحصان اعتباطاً وإنّما يحمل مقصدية مؤثرة في السياق الإشهاري لذلك الأصلاني الذي كان له تاريخ أبيض ضارب في أعماق الحضارة الإنسانية، وليس أسوداً كما يروّج دعاة الكولونيالية الامبريالية، وما تلويث الأنهار إلا إشارة أخرى تضاف إلى سياسات أولئك المستعمرين الذين يحاولون القضاء على سكان القارة الأصليين من خلال نشر الأوبئة في تلك القارة، وكذلك في إنشاء المعامل والمصانع، ودائما ما تحاول الإمبريالية إشهار صورة ملفّقة في خطاباتها الكولونيالية تنمّط من خلالها تلك الشعوب على وفق استراتيجيات مفبركة خدمة لمصالحها وأجنداتها الإستعمارية، لذلك نجد الشاعر يشهر صورة ذلك الهندي المهمّش نائماً بين حاويات الزبالة مع أنّه صاحب الأرض والتاريخ ليروّج للهوية الثقافية ما بعد الكولونيالية المضادة للهوية الكولونيالية التي يشهرها الاستعمار في خطابه من خلال ((تزييف المسار التاريخي

للجماعات الأصلية ووصف ملفّق لأحداث الماضي ... فرميت الشعوب الأصلية خاملة ومستعبَدَة وتابعة وموضوعاً للحكم، فلا يشار إليها إلا بوصفها فئات وطوائف وجماعات متباينة في المعتقد أو العرق أو اللون أو اللغة، فمحيت تواريخها الأصلية، واقتُرِحَتْ لها تواريخ مغايرة تستجيب للرؤية الإستعمارية))[١٠] ونلاحظ أنّ الشاعر لا يذكر اسم (القارة الأمريكية) لأنّ ذلك يجعله ضمن الخطاب الكولونيالي في الهيمنة وهو يشهر هوية ثقافية ما بعد كولونيالية؛ لذلك يسعى إلى تحطيم السرديات الكبرى الكولونيالية الواهية ويحاول استرجاع الحقوق لأصحابها، وأصحاب تلك القارة هم الهنود وليس المستعمِرِين الأمريكان وهذا العالم الذي يظنّه كولومبوس اكتشافاً جديداً هو ((بالنسبة لأهله ومواطنيه ليس جديداً ولا مستحدثاً، بل ضارباً بجذوره في أعماق التاريخ، وهكذا نجد أنّ التسميات ذاتها تشي باستملاك الآخر لغوياً، وقد تم الاستملاك أيضاً على صعيدَي الاقتصاد والثقافة بإزاحة الآخر وإبادته، حتى أنّ السكان الأصليين أصبحوا أقلّيّة وغرباء في أوطانهم))[١١] وهكذا استوعب سركون بولص مأساة الأصلاني التي سعى المستعمِر إلى تهميشه واستلابه جسدياً وثقافياً والترويج لقضاياه الإنسانية ومن خلال ذلك أشهر هويته الثقافية الما بعد كولونيالية المناهضة للهوية الامبريالية.

وهذا ما نلاحظه عند عبد الوهاب البياتي في نصّه (القربان)[١٢] :

رأيتُ نيرودا مع الهنود في مذابح الأنديز في

مطارح القارّة حيث الجوع والإنجيل والمنشور في

الشّوارع العارية – المسالخ – السّجون

يحاول الشاعر تشكيل هويته الثقافية ما بعد الكولونيالية من خلال ضخ علامات لسانية تقرّب المتلقي من مقصدية الخطاب فـ (نيرودا – الهنود – الأنديز – القارّة) لم تأتِ اعتباطاً، فمن خلالها يتم الكشف عن ما أراد الشاعر الإشهار عنه وهو الهوية المضادة للاستعمار، فنيرودا الثائر ضد الاستعمار الأوربي الغربي لبلاده تشيلي التابعة لأمريكا الجنوبية، والهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين، والأنديز سلسلة جبلية تمتد على طول تلك القارة الواسعة، وما أراد الشاعر إيصاله من خلال ذلك تشكيل هوية ثقافية منحازة إلى المهمّشين من البشر، حيث

الترويج لقضية الأصلاني (الهنود) سكان قارة أمريكا الأصليين، كما نلاحظ ثيمة الإستلاب المكاني طافحة في هذا الخطاب الإشهاري فـ (الشوارع العارية – المسالخ – السجون) وهذا بطبيعته خطاب فاضح للإمبريالية التي تحاول الظهور بصورة الحمل الوديع بينما يكمن في داخل تلك الصورة وحش كاسر يسعى لاستلاب الشعوب والهيمنة على مقدّراتها، ونلاحظ أنّ البياتي يؤخر عبارة (مطارح القارّة) إلى السطر التالي على الرغم من كونها مكمّلة للعبارة السابقة (رأيت نيرودا مع الهنود في مذابح الانديز في) وذلك لكي تتناسب هندسياً مع خطابه الما بعد كولونيالي المشكّل لهويته الثقافية حيث عدم الاعتراف باستراتيجيات الخطاب الكولونيالي في الهيمنة على القارة التي كان يسكنها الهنود الحمر، فهو يشهر عن عدم اعترافه بقارة أمريكا، بوصفها مسروقة من سكّانها الأصليين؛ لذلك يحاول تغييبها في السطر الأول وتهميشها إلى السطر الذي يليه. كما نلاحظ ثيمة الإستلاب أيضاً في قوله[١٣] :

يُسلَخُ جلد الشاة بعد ذبحها لكنّ جلد ذلك

المنتظر – الانسان، قبل ذبحه يُسلَخُ في المنازل

الأرضية – المحاضر السرية – الملاجئ – المحاكم – المصارف –

المسالخ – الشوارع العارية – السجون ، يشوى في

جحيم الكلمات

نلحظ الإهتمام بتصوير طابع الإستلاب والهيمنة على البشر ومحاولة كبت الحريات وتغييب الحقوق ومعها تغييب الأجساد والأفكار والثقافات ومحاولة صناعة ثقافة جديدة وشعوب جديدة مروّضة تابعة للاستعمار ومؤيّدة لأفكاره وثقافته الإمبريالية، ويحاول الشاعر فضح أكاذيبها في حرية الشعوب وتحريرها من الوحشية وحقوق الإنسان تلك السرديات الواهية التي اعتمد عليها الاستعمار في احتلاله لشعوب العالم وتحديداً تلك القارة المسروقة من أهلها الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين، فطبيعة الحال تقتضي أن يُسلَخَ جلد الشاة بعد مفارقتها الحياة أمّا مَنْ يدّعون زوراً وبهتاناً تمسّكهم بحقوق الإنسان تلك الدعاوى المشروخة فإنّهم يسلخون جلد البشر قبل ذبحه، ويشكّل الدال (الملاجئ) رمزاً للغربة والنفي الإجباري لشعوب الهنود الحمر، ويشكّل الدال (المصارف) رمزاً للمذابح الإقتصادية التي ارتكبها الاستعمار بحق

تلك الشعوب التي تمتلك حضارة ضاربة في أعماق التاريخ وليس كما يدّعي الامبرياليون أنّهم شعوب متوحّشة خالية من الحضارة. كما توحي الدوال (المسالخ – الشوارع العارية – السجون) بالإستلاب المكاني حيث تشكل تمثيلاً لعذابات ومآسي الشعوب المحتلة من قبل الاستعمار الأوربي الغربي الذي يتعالق وطبيعة الخطاب ما بعد الكولونيالي المحدّد للهوية الثقافية ما بعد الكولونيالية إذ ((يمثّل الإهتمام بالمكان والإزاحة عن المكان ملمحاً رئيسياً من ملامح آداب ما بعد الكولونيالية وهو ما يعني هنا ظهور أزمة خاصّة ما بعد كولونيالية تتعلّق بالهوية والاهتمام بتطور أو استعادة علاقة فعّالة بين الذات والمكان لتحديد الهوية))[١٤].

المبحث الثاني

إشهار الهوية الثقافية اليوتوبية في الشعر العراقي المعاصر

اليوتوبيا مصطلح يوناني يعني اللامكان[١٥] ويقصد به ((ذلك النمط من التوجّه الذي يتسامى على الأمر الواقع ويحطّم في الوقت نفسه حدود النظام القائم))[١٦] يرجع استعمال مصطلح اليوتوبيا إلى توماس مور صاحب كتاب (يوتوبيا) الذي يرى أنّ فكرة اليوتوبيا راودت خيال المفكرين والأدباء كثيراً وروّجوا لها من خلال أعمالهم الإبداعية عبر استراتيجيات مختلفة، وهم إذ يقدّمون إشهاراً ((لعالم مثالي تختفي منه شرور عالم الواقع وتتحقّق فيه أحلام الإنسانية بالسّعادة والكفاية والعدل))[١٧] إنّما يحلمون بمدينة فاضلة يصنعها الإنسان من دون وصايا ما ورائية هابطة من السماء، ولاشك أنّ الشعراء على امتداد تاريخهم الطويل كانوا يحلمون بمدن فاضلة يعيش الناس في كنفها أحراراً؛ نظراً لما يواجهونه في واقعهم من غياب للعدالة وانتشار للظلم والمكر والخديعة، وعلى الرغم من كون اليوتوبيا تحمل أفكاراً خيالية إلا أنّ الشعراء يروّجون من خلالها لآمال وأحلام تتحرّى تحقيق السلام والعدالة الإجتماعية والمساواة للإنسان على أرض الواقع، وهذا ما يجعلها تقابل الآيديولوجيا في المفهوم والإشتغال، فإذا كانت الآيديولوجيا تتسم بالسلبية لما تضخّه من أفكار تسعى للمحافظة على الواقع التسلّطي القائم، نجد اليوتوبيا تسعى إلى التمرّد والتحرّر بوصفها ممثّلة لأفكار الطبقة المهمّشة المحكومة[١٨] ومن ثمّ فإنّ الشعراء يروّجون لهوية يوتوبية مهمّشة مناهضة للهوية الأيديولوجية المركزية.

وتقسّم سمرة عمر اليوتوبيا إلى مستويات أنطولوجية، وأبستمولوجية، وميتافيزيقية، وسياسية، وتاريخية، فأنطولوجياً تعبّر عن ((نفي ما هو موجود من خلال التفكير والبحث عن ما هو ليس موجود وكائن فعلاً))[١٩] أمّا أبستمولوجياً فتعبّر عن ((رفض ونكران ما نراه ونسمعه ونحسّ به ونعرفه كحقيقة؛ لأنّه بإمكاننا أن نصل إلى حقائق ومعلومات أخرى لم يتم كشفها؛ لأنّ الذي نعرفه ليس فقط جدير بالمعرفة، وإنّما الذي لم نتعرّف عليه يستحق البحث والمعرفة أيضاً))[٢٠] أمّا من الناحية السياسية فتعبّر عن ((نظرة سياسية واقعية؛ لأنّها نفي ورفض الواقع السياسي والخروج من جبروته))[٢١] ومن الناحية التاريخية تعبّر عن ((رفض أو خروج عن حتمية الأحداث وسلسلة التاريخ عن طريق البحث عن مستقبل أفضل))[٢٢].

وما يهمّنا هنا هو التركيز على النصوص الشعرية التي تتولّى الإشهار للرؤى والأفكار والتصورات اليوتوبية التي تروّج لمجتمعات وأنظمة سياسية خالية من الظلم والتهميش، سعياً إلى ((إنشاء مجتمع لا يقتصر على كونه أفضل من المجتمع الحالي، بل يكون مجتمعاً بالغاً حدّ الكمال))[٢٣] لذا ترتبط تلك الأفكار المروّج لها بأحلام الجماعة حاملة شعارات مطالبة بالتغيير وتحقيق المجتمع المثالي.

ومن تلك النصوص الشعرية العراقية المعاصرة التي روّجت للفكر اليوتوبي (يقظة دلمون) للشاعر خزعل الماجدي المنشور في مجموعته الشعرية (يقظة دلمون) الصادر عام ١٩٨٠ يروّج لهوية يوتوبية مرتبطة بعالم الأسطورة إذ يقول[٢٤] :

ينحدر الملائكة مزهوّين بحفيف أجنحتهم الذهبية

من الأقاصي إلى دلمون ذات الجنائن

المشتعلة بالزنابق الحمراء حاملين

النّور الإلهي معهم وباعثين في دلمون الفرح

تتشكّل عناصر اليوتوبيا في النص من خلال العلامات السيميائية التي ترسم حلماً يوتوبياً بمكان مثالي، وهذا الحلم لا شكّ يداعب مخيلة المتلقي، فأوّل طاقة ترغيبية يوجّهها الماجدي في خطابه الإشهاري تجاه متلقيه هي الملائكة بأجنحتها الذهبية ذات الطابع الغرائبي القادمة من الأقاصي نحو تلك المدينة الفاضلة (دلمون)، ولكي يرغّب متلقيه أكثر يحاول رسم

تلك المدينة بطريقة سحرية أسطورية ذات طراز خاص، فهي عبارة عن جنائن مشتعلة بزنابق حمراء، ولا ننسى ما للعلامة السيميائية (الجنائن) من أبعاد إشهارية فهي جمع جُنَينَة وهذا ما يقرّبها من السمات اليوتوبية حيث الفردوس المفقود بمفهومه الديني الجنّة المعدّة للمؤمنين، ولكي يرغّب المتلقي أكثر يحاول أن يقرّب له الغاية من مجيء الملائكة التي تحمل طابعاً دينياً أيضاً، إذ ترتبط بالجنة تلك المدينة الفاضلة المثالية التي رسمها الإله في مخيّلة عباده المؤمنين حول مصائرهم في نهاية طريق الحياة، والغاية من مجيئهم نحو دلمون هو بث النور الإلهي ونشر الفرح والسعادة في ربوعها، وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى أنّ ساكن تلك البلاد سيكون محطّ أنظار وعناية الإله الذي سيمنح تلك المدينة وسكّانها الخلود والسعادة والأبدية المطلقة، وهذا ما أراد الماجدي إيصاله إلى متلقيه ترغيباً وإقناعاً له لتسويق هويته الثقافية اليوتوبية المناهضة للواقع الأيديولوجي الذي رسّخته السلطات المهيمنة، وعانت منه الشعوب طويلاً ومن ثمّ صار لزاماً إعتناق ما يضادّه من هوية يوتوبية لكي يعيش البشر في مجتمعات وبلدان خالية من الطبقية والوعي المزيف.

ثم يواصل بث رسائله الإشهارية في النص نفسه إذ يقول[٢٥] :

كانت دلمون بلاد الله

مسافرةً في البحر

ومورقةً في النور وبيضاء كروح العاشق

أفتح أبواب الجنة

ألمح برقاً في الآفاق يصعّد نار الخلق

كانت دلمون بلاد المحروقين بنار المعرفة

كانت دلمون بلاد الروح الباحثة عن الخلد

وجنّات الجسد القدّيس

فلكي يعوّض عن الجدب وتصحّر الأرواح التي يعيشها الإنسان المعاصر يحاول الماجدي العودة إلى الفردوس السومري محوّلاً إيّاه إلى مَثَل أعلى للإنسانية جمعاء، فدلمون

((هي الأرض التي اعتبرها السومريون خاليةً من الشّرور، ومسكونة من قبل الآلهة والخالدين من البشر ... وهي تشكّل الفردوس السومري))[٢٦] فهو يحاول أن يحرّك عاطفة المتلقي من خلال توظيف معطيات نفسية تمسّ موضوعات إنسانية كبرى كالشباب، والسعادة، والرفاهية، والحرية، والمساواة، والجمال مستظلًّا بمظلّة اليوتوبيا، أو محاولاً أن يلبس المتلقي هوية يوتوبية من خلال توجيه ذائقته ووعيه وأفكاره، فهو يوجّه رغباته من خلال العزف على الوتر النفسي الديني (كانت دلمون بلاد الله) وهذا ما يكسبها طاقة جمالية يضعف أمامها البشر، ثم يضفي على تلك المدينة طابعاً غرائبياً (مسافرةً في البحر / ومورقةً في النور / وبيضاء كروح العاشق) ثم إدخال المتلقي إلى ذلك الفردوس ليتملّى بذلك الجمال الخالد (أفتح أبواب الجنة) محوّلاً الضمير إليه فهو من سيفتح الباب بنفسه ليتمتّع بقيمة الأشياء، وهذا يذكّرنا بالبائعين في المحلات أو غيرها وجملهم الشهيرة (جرّب ولن تخسر شيئاً) وهو في تجربته تلك يحاول مفاجأته بمشهد غرائبي ليثير رغباته وصولاً لحالة الدهشة (ألمح برقاً في الآفاق يُصَعِّدُ نار الخلق / كانت دلمون بلاد المحروقين بنار المعرفة / كانت دلمون بلاد الروح الباحثة عن الخلد وجنّات الجسد القدّيس) وهذا ما يبحث عنه أي إنسان أن يحظى بمدينة سكّانها متوهّجون بنار المعرفة، خالدون بأجساد جميلة تتسم بالقداسة، وتتمثّل النزعة اليوتوبية هنا في جعل الفردوس صنيعة بشرية، نهضت دعائمها على أيدي البشر المتّصفين بشعلة الذكاء والمعرفة، إنّها باختصار ((الجنّة النّقيّة الطّاهرة التي لا يعرف ساكنوها الألم والمرض والشيخوخة ولا يعتدي فيها مخلوق على آخر))[٢٧].

ولعارف الساعدي نصّ شعري بعنوان (الشّمس أجمل في بلادي) يشهر من خلاله هويته الثقافية اليوتوبية إذ يقول[٢٨] :

ويغزلون قريةً واحدةً

في أفقهم هناك

الله وحده من فوقهم

ومقلتان من ملاك

لا أحدٌ يسألهم

ويمنع الأطفال حين يلعبون

أطفالهم بلا انتظار يكبرون

يصاحبون كلّ طفلة من النجوم

إذ النجوم بينهم تحوم

ويحفرون قُبلةً في خدّها ويركضون

فالأفق أغنيات طفلة

غفت على ظلالها الأشجار

يروّج الساعدي للهوية اليوتوبية من خلال بنائه لقرية مثالية يلامس من خلالها لا وعي المتلقي، إذ يخاطب الأحلام الغافية في روحه، فأن تغزل في أفق المتلقي قرية مثالية محروسة بالإله والملاك فذلك خطاب يحمل مقصدية إشهارية تلامس المتواري من الأمنيات التي تنتظر التحقيق، ففي تلك المدينة تنتفي السلطات المهيمنة على البشر (لا أحد يسألهم / ويمنع الأطفال حين يلعبون) والإنسان بطبيعته يحب الحرية ويكره العبودية والهيمنة على خصوصياته، ويستثمر الأبعاد العجائبية التي تحدد نمطية تلك المدينة ونظامها اللاواقعي، فأطفال تلك القرية يكبرون من دون انتظار ورعاية؛ لأنّ النجوم تتولى رعايتهم والإهتمام بهم، فهم والنجوم رفاق طفولة واحدة، يحفرون القبلات في خدودها، ولا شك أنّ المتلقي حين يتأمّل مشهد تلك النجوم وهي تحوم بين سكّان تلك القرية سيصاب بالدهشة، أمّا المستقبل فيتسم بالبراءة والنقاء (فالأفق أغنيات طفلة / غفت على ظلالها الأشجار) وإذا كانت تلك الأغنيات مؤثرة على الشجر فما بالك بالبشر، وكأنّ الساعدي يداعب اللاوعي الجماعي الذي يتشابه فيه جميع البشر، فهو يحاول إيقاف الزمن والتاريخ في صناعة تلك القرية الفاضلة التي يروّج من خلالها لهويته الثقافية اليوتوبية.

ويواصل صناعة تلك القرية المثالية من خلال آلية التشكيل العجائبي لتفاصيلها في النص نفسه[٢٩] :

والعالم العلوي ملكهم هم وحدهم

فالغيم يمسكونه

ويعجنونه

حتى يصير كالحجار

ويضربون بعضهم بغيمةٍ

وغيمةٍ

وغيمةٍ

فتولد الأمطار

الكلّ ملكهم

لو أظلمت قريتهم ولو للحظةٍ

سيُخرجون الفجرَ من جيوبهم

ويزرعونها نهار

هم هكذا يهاجرون

ويغزلون قريةً

لا موت في درويها

لا حربَ لا جنون

فسكّان تلك القرية يحكمون أنفسهم بأنفسهم فـ (العالم العلوي ملكهم هم وحدهم) فلا سلطة ما ورائية تتسلّط على أقدارهم، ولا يزال النسق العجائبي يتناسل بعضه من بعض، فإمساك الغيم وعجنه، وضرب بعضهم بعضاً بالغيوم وولادة المطر من خلال ذلك المشهد الغرائبي يدعو المتلقي إلى إعادة النظر في واقعه المادي الرأسمالي المريض، ففي تلك القرية الفاضلة كل شيء مشاع، وكأنّه يؤسس لنظام دولة مثالي يحقق العدالة والسعادة للجميع فضلاً عن إمّحاء الشرور، فالبشر سواسية في الملكية والقانون، وهذا بطبيعة الحال خطاب ينادي

بعودة البشرية إلى فطرتها وطفولتها الطاهرة، في قرية المثل العليا، الناس فيها مجبولون على العلم والمعرفة والذكاء، قرية لا موت فيها ولا حروب ولا جنون، إنّما حياة دائمة محاطة باليناعة والإخضرار، وكأنّه يروّج لفكرة الجنة المتداولة لدى جميع الأديان.

الخاتمة:

وبناءً على ما تقدّم من إشهار للهويات الثقافية ما بعد الحداثية نخلص إلى نتيجة مفادها تحرّر خطاب الشاعر العراقي المعاصر من قيود الإشهار والترويج للآيديولوجية المركزية الغربية وانحيازه التام والكامل للهويات الثقافية المرتبطة بالهامش إشهاراً وترويجاً، كالهوية الثقافية ما بعد الكولونيالة، بهدف تفكيك الخطاب الكولونيالي وقراءة المسكوت عنه فيه، وإعادة الصوت للمهمشين والمنفيين خارج المتن.

كما اتّسم خطاب الشاعر العراقي المعاصر بالإنحياز إلى الهوية الثقافية اليوتوبية إشهاراً وترويجاً، بوصفها معادلاً موضوعياً لضغط الآيديولوجيات العامة، بما تتضمنه من سمات يوتوبية باحثة عن مفاهيم مثالية مرتبطة بالجوانب الإنسانية كالحرية والعدالة الإجتماعية في واقع غير مثالي، مما يجعلها تندرج ضمن الهويات الثقافية المغتربة.

Announcing Post-Colonial and Utopian Cultural Identity in Contemporary Iraqi Poetry

Mohamed Jamil Mustafa Asst. Prof. Jassim Muhammed Hussain(PhD.)
University of Diyala/ College of Education for Humanities

Abstract

The research aims to study the contemporary Iraqi poetry (from the pioneers to 2003) to determine the extent of the ability of the contemporary Iraqi poet to highlight and promote cultural identities and transform the minds of the recipient towards them , and the extent of its support for the theory that advertising has the ability and ability to change cultural peculiarities as a cultural industry that promotes and markets cultural and social values, norms and patterns; Because of its persuasive cultural strategies. Therefore, this study sought to reveal this by adopting the analytical mechanisms under the umbrella of cultural studies, and the study required dividing the research into two sections preceded by an introduction and presentation and followed by a conclusion that stood at the most important results extracted from the study.

الهوامش

(١) ينظر: بول ريكور الهوية والسرد، د. حاتم الأورفلي، دار التنوير للطباعة والنشر، ٢٠٠٩م: ٣٧.

(٢) دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنّقد الثقافي إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، د. سمير الخليل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠١٤م: ٣١٦– ٣١٧.

(٣) إشكالية التعدّديّة في الفكر السياسي المعاصر، حسام الدين علي مجيد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، ٢٠١٠م: ١٨٥.

(٤) ينظر: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، حفناوي بعلي، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧م: ٣٠٠.

(٥) ينظر: المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٦) فضاءات النقد الثقافي من النص إلى الخطاب، د. سمير الخليل، دار البصائر، بغداد – العراق، ٢٠١٥م: ١٧٧.

(٧) دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، د. سمير الخليل: ١٩٠.

(٨) الثقافة والامبريالية، إدوارد سعيد، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت – لبنان، ط٤، ٢٠١٤م: (المقدمة) ١٨.

(٩) الأعمال الشعرية، سركون بولص، منشورات المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية، أربيل، ط١، ٢٠١١م: ١/ ٩١.

(١٠) موسوعة السرد العربي، عبد الله ابراهيم، قنديل للطباعة والنشر، دبي – الإمارات، ط١، ٢٠١٦م: ٨/ ٢٨٤– ٢٨٥.

(١١) فتح أمريكا – مسألة الآخر، تزفيتان تودوروف، تر: بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة – مصر، ط١، ١٩٩٢م: (المقدمة).

(١٢) الأعمال الشعرية، عبد الوهاب البياتي: ٢/ ٣٤٣.

(١٣) المصدر السابق: ٢/ ٣٤٢.

(١٤) الرد بالكتابة – النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، بيل أشكروفت، غاريث غريفيث، هيلين تيفن، تر: د. شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٦م: ٧٢.

(١٥) ينظر: المعجم الفلسفي، مصطفى حسيبة، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ٢٠٠٩م: ٣٠٥.

(١٦) الأيديولوجيا واليوتوبيا مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة، كارل ما نهايم، تر: د. محمد رجا الديريني، شركة المكتبات الكويتية، الكويت، ط١، ١٩٨٠م: ٢٤٧.

(١٧) يوتوبيا، توماس مور، تر: د. إنجيل بطرس سمعان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة – مصر، ط٢، ١٩٨٧م: ١٣.

(١٨) ينظر: الكتابة والتشكيل الأيديولوجي في الرواية العربية المعاصرة – دراسة نقدية أيديولوجية، (أطروحة دكتوراه)، السعيد عموري، جامعة الحاج لخضر، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية، الجزائر، (٢٠١٢- ٢٠١٣): ١٦.

(١٩) اليوتوبيا في الخطاب الإشهاري التلفزيوني، سمرة عمر، مجلة العلوم الإجتماعية والإنسانية، جامعة تبسة، ع١١، ٢٠١٦م: ٤١٦.

(٢٠) المصدر السابق: ٤١٦- ٤١٧.

(٢١) المصدر السابق: ٤١٧.

(٢٢) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٢٣) موسوعة النظرية الثقافية، أندرو إدجار وبيتر سيد جويك، تر: هناء الجوهرى، المركز القومي للترجمة، القاهرة – مصر، ط٢، ٢٠١٤م: ٧٣٧.

(٢٤) الأعمال الشعرية، خزعل الماجدي: ٢/ ٢٤٦.

(٢٥) المصدر السابق: ٢/ ٢٤٧.

(٢٦) الأساطير السومرية، د. الحسيني الحسيني معدّى، دار كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ط١، ٢٠١٢م: ١٨٨.

(٢٧) الأسطورة والمعنى – دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، فراس السواح، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠١م: ٦٩.

(٢٨) الأعمال الشعرية، عارف الساعدي، دار سطور للنشر والتوزيع، بغداد – العراق، ط١، ٢٠١٨م: ٥٠.

(٢٩) المصدر السابق: ٥٠ – ٥١.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً / الكتب:

- الأساطير السومرية، د. الحسيني الحسيني معدّى، دار كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ط١، ٢٠١٢م.
- الأسطورة والمعنى – دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، فراس السواح، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠١م.
- إشكالية التعدّديّة في الفكر السياسي المعاصر، حسام الدين علي مجيد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، ٢٠١٠م.

- الأعمال الشعرية، خزعل الماجدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ٢٠٠١م. الجزء الثاني.
- الأعمال الشعرية، سركون بولص، منشورات المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية، أربيل، ط١، ٢٠١١م. الجزء الأول.
- الأعمال الشعرية، عارف الساعدي، دار سطور للنشر والتوزيع، بغداد – العراق، ط١، ٢٠١٨م.
- الأعمال الشعرية، عبد الوهاب البياتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ١٩٩٥م. الجزء الأول، والثاني.
- الأيديولوجيا واليوتوبيا مقدمة في سوسيولوجيا المعرفة، كارل ما نهايم، تر: د. محمد رجا الديريني، شركة المكتبات الكويتية، الكويت، ط١، ١٩٨٠م.
- بول ريكور الهوية والسرد، د. حاتم الأورفلي، دار التنوير للطباعة والنشر، ٢٠٠٩م.
- الثقافة والامبريالية، إدوارد سعيد، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت – لبنان، ط٤، ٢٠١٤م.
- دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنّقد الثقافي إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، د. سمير الخليل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠١٤م.
- الرد بالكتابة – النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، بيل أشكروفت، غاريث غريفيث، هيلين تيفن، تر: د. شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.
- فتح أمريكا – مسألة الآخر، تزفيتان تودوروف، تر: بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة – مصر، ط١، ١٩٩٢م.
- فضاءات النقد الثقافي من النص إلى الخطاب، د. سمير الخليل، دار البصائر، بغداد – العراق، ٢٠١٥م.
- مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، حفناوي بعلي، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧م.
- المعجم الفلسفي، مصطفى حسيبة، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ٢٠٠٩م.

- موسوعة السرد العربي، عبد الله ابراهيم، قنديل للطباعة والنشر، دبي – الإمارات، ط١، ٢٠١٦م.
- موسوعة النظرية الثقافية، أندرو إدجار وبيتر سيد جويك، تر: هناء الجوهرى، المركز القومي للترجمة، القاهرة – مصر، ط٢، ٢٠١٤م.
- يوتوبيا، توماس مور، تر: د. إنجيل بطرس سمعان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة – مصر، ط٢، ١٩٨٧م.

الدوريات:

- اليوتوبيا في الخطاب الإشهاري التلفزيوني، سمرة عمر، مجلة العلوم الإجتماعية والإنسانية، جامعة تبسة، ع١١، ٢٠١٦م.

الرسائل والأطاريح الجامعية:

- الكتابة والتشكيل الأيديولوجي في الرواية العربية المعاصرة – دراسة نقدية أيديولوجية، (أطروحة دكتوراه)، السعيد عموري، جامعة الحاج لخضر، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية، الجزائر، (٢٠١٢– ٢٠١٣).